



A Critical Evaluation of the Critical Opinions on the Methodology of Allama Tabatabai in His Book (Tafsir al-Mizan): An Analytical Critical Study

Asst. Lect. Dhalfiqar Majid Mutashar

General Directorate of Education in Wasit

thualfkarmajid@gmail.com

٠٧٨١٢١١٠٠٢٢

Received May.20, 2026

Revised Jul. 9, 2026

Accepted Jul.11, 2026

Online October1, 2026

ABSTRACT

Critics have offered numerous perspectives on the interpretive methodology of Al-Tabataba'i in his seminal work, Tafsir al-Mizan, which is widely regarded as one of the most prominent contemporary exegeses in Islamic thought. The work is distinguished by a methodology grounded in the principle of "interpreting the Qur'an by the Qur'an," serving as the foundational basis for the entire process of Qur'anic elucidation. This approach represented an attempt to restore the centrality of the Qur'anic text in exegesis, diverging from an absolute reliance on traditional narrations or specific theological and philosophical orientations.

However the practical application within his exegesis reveals Al-Tabataba'i's openness to a variety of approaches, including linguistic analysis, philosophical inquiry, narrative transmission, and sociological interpretation.

This methodological diversity has sparked extensive scholarly debate regarding the boundaries of his primary principle and the extent of his strict adherence to it.

A rigorous analysis of the exegetical structure demonstrates that this methodological diversity was not a deviation from the core principle, but rather an extension of its interpretive function.

The Qur'anic text remained the supreme reference point against which all other analytical tools were evaluated and from which their hermeneutical legitimacy was derived.

What distinguishes Al-Tabataba'i's methodology is the structural balance between Qur'anic authenticity and intellectual openness. Rather than rejecting modern scientific and intellectual methodologies, he subjects them to a Qur'anic criterion, ensuring that the primary text is never superseded. Through this approach, Al-Tabataba'i successfully presented a contemporary exegetical model that harmonizes objective analytical rigor with a profound spiritual ethos.

Keywords: Critical Perspectives – Al-Tabataba'i's Methodology – Tafsir al-Mizan.

نقد الآراء النقدية لمنهج العلامة الطباطبائي في كتابه (تفسير الميزان)
دراسة تحليلية نقدية

م.م. ذوالفقار ماجد مطشر / المديرية العامة للتربية واسط

thualfkarmajid@gmail.com

٠٧٨١٢١١٠٠٢٢

المخلص

تناول النقاد الكثير من الآراء تخص منهجية الطباطبائي التفسيرية في كتابه الميزان الذي يعد أبرز التفاسير المعاصرة في الفكر الإسلامي، إذ تميز بمنهج ينهض على مبدأ تفسير القرآن بالقرآن بوصفه الأساس المنهجي الذي تبنى عليه عملية البيان القرآني. وقد مثل محاولة لإعادة مركزية النص القرآني في التفسير، بعيداً عن الاعتماد المطلق للروايات أو

للاتجاهات الكلامية والفلسفية، غير أن التطبيق العلمي في تفسيره كشف عن انفتاح الطباطبائي على جملة من المناهج، من مثل التحليل اللغوي والبحث الفلسفي والنقل الروائي والقراءة الاجتماعية، ما أثار جدلاً علمياً واسعاً تخص حدود هذا المبدأ ومدى التزامه فيه.

ومن تحليل دقيق لبنية التفسير، يتبين أن هذا التنوع المنهجي لم يكن خروجاً عن أصل المبدأ، بل امتداداً له من حيث الوظيفة التفسيرية، إذ بقي النص القرآني هو المرجع الأعلى الذي توزن به الأدوات الأخرى وتستمد منه شرعية استعمالها، فما يميز منهج الطباطبائي هو التوازن المنهجي بين الأصالة القرآنية والانفتاح العقلي، فهو لا يغلق الباب أمام المناهج العلمية والفكرية الحديثة، بل يُسيقها لمعيار قرآني يضمن عدم تجاوز النص.

وبهذا استطاع الطباطبائي أن يطرح نموذجاً تفسيرياً معاصراً يجمع بين التحليل الموضوعي والروح الإيمانية.

الكلمات المفتاحية: الآراء النقدية – منهج الطباطبائي – تغير الميزان.

المقدمة:

يعد كتاب الميزان في تفسير القرآن للعلامة محمد حسين الطباطبائي من أبرز النتاجات التفسيرية في العصر

الحديث، فقد مثل نقلة نوعية في مناهج التفسير من اعتماده مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، وقد شكل هذا المبدأ قاعدة أساسية في مشروعه التفسيري، إذ يرى الطباطبائي أن القرآن كتاب متكامل بذاته، يفسر بعضه بعضاً، وأن السبيل الأمثل لفهم معانيه ومقاصده إنما يكون بالرجوع إلى نصوصه الداخلية، غير أن الدراسة المتأنية لهذا التفسير تكشف عن أن الطباطبائي لم يقتصر علمياً على هذا الإطار وحده، بل استعان بمناهج أخرى من مثل التحليل اللغوي والبحث الروائي والاستدلال الفلسفي والتفسير الاجتماعي، الأمر الذي أثار جدلاً واسعاً بين الباحثين والمفسرين تخص طبيعة هذا المنهج وحدود انسجامه.

ويكشف التعمق في بنية تفسير الميزان عن رؤية منهجية متكاملة لا تلغي تلك الأدوات، وإنما توظفها بوصفها

وسائل إيضاح وإعانة، فيما يبقى الأصل القرآني هو المحور الأساس الذي تدور عليه العملية التفسيرية.

ومن ثم يتبين أن ما وصف أحياناً بالتناقض بين النظرية والتطبيق إنما هو في حقيقته تكامل منهجي يعيد

الاعتبار إلى القرآن بوصفه النص المرجعي الأول، مع الانفتاح في الوقت نفسه على معطيات المعرفة الإنسانية التي تعين على استجلاء مضامينه، وهكذا يمثل منهج الطباطبائي تجربة رائدة جمعت بين الأصالة القرآنية والعمق العقلي والاجتماعي، وأسست لبنية تفسيرية حديثة ما تزال محل بحث ونقاش في الدراسات القرآنية المعاصرة.

مشكلة البحث:

تتمحور المشكلة الرئيسية لهذا البحث في الرؤى النقدية التي وجهت إلى منهج العلامة الطباطبائي بما يتعلق

بمبدأ تفسير القرآن بالقرآن الذي جعله أساساً لمنهجه التفسيري، فقد ذهب بعض الباحثين إلى أن إعلان الطباطبائي اعتماد هذا المبدأ بوصفه المنهج الرئيس لفهم النص القرآني يقابله في التطبيق التفسيري حضور واضح لمناهج أخرى، مثل المنهج الروائي واللغوي والفلسفي والاجتماعي، الأمر الذي دفع بعض النقاد إلى القول بوجود تباين أو مفارقة بين

المبدأ المنهجي المعلن وبين الممارسة التفسيرية الفعلية في تفسير الميزان.

وانطلاقاً من ذلك نشأت مجموعة من القراءات النقدية التي حاولت تفسير هذا التباين بوصفه إشكالاً منهجياً في

بنية التفسير، إذ رأى بعضهم أن توسع الطباطبائي في توظيف تلك المناهج يفضي إلى تجاوز الإطار الذي حدده لنفسه، مما يفهم على أنه خروج عن مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، وكذلك لا يمكن أن يقتصر التفسير بالقرآن وابعاد المناهج الأخرى كما هو معلن لديه.

فرضية البحث:

تتطلب هذه الدراسة من فرضية مفادها أن العلامة الطباطبائي ظل ملتزمًا في تفسيره بمبدأ تفسير القرآن بالقرآن بوصفه المنهج الأصيل، غير أن توظيفه للمناهج الأخرى لم يكن خروجًا عن هذا الإطار، بل جاء على سبيل الإعانة والتكميل لا على سبيل التأسيس، أي أن هنالك فرق بين الأصل في التفسير وبين ما يعين عليه. وعليه؛ فإن ما اعتبر تناقضًا بين المبدأ المعلن والممارسة التطبيقية لا يعدو أن يكون ناشئًا من إطلاق وعموم وشمول صياغة الطباطبائي لمبدئه، بينما الواقع يكشف عن انسجام منهجي يقي التفسير القرآني الذاتي في المركز، ويجعل من سائر المناهج أدوات مساندة لا تمس جوهر المنهج.

أهمية البحث:

تتبع أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى تحليل هذه الإشكالية وكشف حقيقة المنهج الذي اعتمده الطباطبائي، ويهدف إلى بيان ما إذا كان تفسير الميزان قد قدم نموذجًا منسجمًا لتفسير القرآن بالقرآن، أم أنه مثل تداخلًا منهجيًا يجعل من القرآن مركزًا ومن المناهج الأخرى وسائل إيضاح وإعانة، وبهذا يسهم البحث في تعميق فهمنا لمناهج التفسير المعاصرة، ويضيء الجدال القائم عن التفسير الذاتي للقرآن وموقعه بين المناهج التفسيرية المتنوعة.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الأسس النظرية التي انطلق منها العلامة الطباطبائي في تبني مبدأ تفسير القرآن بالقرآن، وبيان مرتكزاته المنهجية، ويسعى كذلك إلى تحليل تطبيقاته التفسيرية للكشف عن مدى التزامه بالمبدأ المعلن، مع التوقف عند الموارد التي استعان فيها بالمناهج الأخرى من مثل اللغة والرواية والفلسفة والبعد الاجتماعي، وتوضيح طبيعة هذه المناهج المساعدة باعتبارها أدوات إيضاح وتكميل لا بدائل عن الأصل القرآني. ويتوخى البحث أيضًا بيان وتوضيح الانتقادات الموجهة إلى منهجه، ولا سيما ما أثير من دعوى التناقض بين النظرية والتطبيق، وذلك عبر قراءة نقدية متوازنة تسعى إلى بيان حقيقة الموقف المنهجي للطباطبائي.

ومن ذلك يروم البحث إبراز القيمة العلمية لتفسير الميزان بوصفه أنموذجًا معاصرًا يجمع بين الأصالة القرآنية والانفتاح على المعطيات الفكرية الحديثة، بما يسهم في إثراء الدراسات التفسيرية ويظهر قيمة موقع منهج الطباطبائي ضمن خارطة مناهج التفسير في الفكر الإسلامي.

المبحث الأول: مفاهيم الدراسة

التفسير في اللغة:

تدور مادة فسر في اللغة على معنى البيان والكشف والوضوح ومما ورد في ذلك: فسرت الذراع: إذا كشفتها، وفسرت الحديث: إذا بينته (ابن فارس، ١٩٦٩-١٩٧٢م، ج ٤ ص ٥٠٤).

التفسير: هو بيان وتفصيل الكتاب، وفسره يفسره فسرا، وفسره تفسيرا (الفرايدي، دت، ج ٧ ص ٢٤٧).

التفسير: البيان، فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسرا، وفسره أبانه، والتفسير مثله، والفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل (ابن منظور، ١٤١٤هـ، ج ٦ ص ٣٦١).

التفسير في الاصطلاح:

التفسير: شرح القرآن وبيان معناه والإفصاح لما يقتضيه بنصه أو إشارته أو نجواه (ابن الجزي، ١٤١٦هـ، ج ١ ص ٦).

التفسير: علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاته، وأحكامها الانفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تعمل عليها حال التركيب وتتمت ذلك (ابن حيان، ٢٠٠٠م، ج ١ ص ٢٦).

التفسير: هو إما متأثر أو تفسير بالرأي، فإن التفسير بالرأي إما تفسير عقلي ممدوح، أو تفسير عقلي مذموم، والمذموم هو تفسير يتأثر بمذهب المفسر، واتجاهات المفسر الذاتية، المعتزلة، الشيعة، الإسماعيلية، البابية، البهائية، الخوارج، الصوفية، الفلسفية، الفقهية، العلمية، العصرية (الذهبي، دبت، ج ١ ص ٣٦٧-٣٧٠).

التفسير: هو إما تفسير بالمأثور أو باللغة أو بالعقل أو بالاجتهاد أو بالإشارة، والأول إما تفسير القرآن بالقرآن، أو بالروايات المروية عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، أو بأقوال الصحابة أو التابعين، والتفسير الإشاري على قسمين تفسير إشاري شهودي، وتفسير إشاري علمي (خالد العك، ١٩٨٦م، ٧٥).

المناهج التفسيرية :

لا تتعدى المناهج التفسيرية أصليين هما: التفسير بالعقل والتفسير بالنقل؛ لكن لكل أصل منهما صوراً فصوره

عبارة عن التفسير بالعقل الصريح والتفسير في ضوء المدارس الكلامية والتفسير في ضوء السنن الاجتماعية والتفسير في ضوء العلم الحديث والتفسير حسب تأويلات الباطنية والتفسير حسب تأويلات الصوفية، أما الأصل الثاني فصوره هي تفسير القرآن بالقرآن والتفسير البياني للقرآن وتفسير القرآن باللغة والقواعد العربية وتفسير القرآن بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأنمة عليهم السلام وهذه الصور العشر هي من فروع المنهجين الأصليين (السبحاني، ١٤٣٢هـ، ٥-٦).

إن المناهج التفسيرية التي يسلكها المفسر ويتجه نحوها في تفسيره للآيات القرآنية تختلف حسب اختلاف

اتجاهات المفسرين وأذواقهم، وكذلك بحسب معطياتهم ومواهبهم في العلوم والمعارف وأنحاء الثقافات، فمنهم من لا يعدو النقل، معتقداً أن لا سبيل للعقل إلى تفسير كلامه تعالى، ومنهم من أجاز للعقل التدخل فيه، ويرى للرأي والنظر والاجتهاد مجالاً واسعاً في التفسير، حيث قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد: ٢٤)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤)، فللتدبر في القرآن والتفكير حول آياته ومفاهيمه مجال واسع، قد فتح القرآن ذاته أبوابه بمصراعين، غير أن بعضهم أسرف في التعقل، وربما التحق بالتوهم المتكلف فيه. وعلى أي تقدير، فالمنهج الذي انتهجه المفسرون إما نقلي وإما اجتهادي، وقد عرفنا سبيل النقلي واعتماده على المأثور، إما مع شيء من البيان والتوضيح، كما سلكه أبو جعفر الطبري، أو بمجرد النقل من غير نظر وبيان كالذي انتهجه جلال الدين السيوطي والسيد البحراني. وأما النظري الاجتهادي، فمعتد به إما مجرد الرأي الخاص للمفسر حسب عقيدته ومذهبه، فهذا كأكثر تفاسير أهل الباطن أو مجموعة مصادر التفسير من المنقول والمعقول، وهذا هو الشائع من التفاسير المعتبرة الدارجة بين المسلمين منذ العهد الأول ولا يزال (معرفة، ١٤٢٥هـ، صفحة ١٩-٢٠).

المبحث الثاني: الرؤى النقدية للمنهج التفسيري في تفسير الميزان

لقد شكل التفسير القرآني عبر العصور ميداناً واسعاً لاجتهاد العلماء والمفسرين، حيث تنوعت فيه المناهج والرؤى باختلاف الخلفيات الفكرية والعقائدية. ومن بين تلك المناهج، برز منهج السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي بوصفه منعطفاً مهماً في مسيرة التفسير المعاصر، وذلك من خلال تفسيره الكبير (الميزان في تفسير القرآن)، الذي يعد من أبرز التفسيرات أهمية في العصر الحديث.

لو أخذنا كلام السيد الطباطبائي في تفسيره الميزان، لوجدنا تأكيداً صريحاً ومتكرراً على أن المنهج الصحيح والوحيد في تفسير القرآن هو تفسير القرآن بالقرآن، وقد عبر عن هذا المبدأ بوضوح في أكثر من موضع، مؤكداً أن الآيات القرآنية تتكامل وتبين بعضها بعضاً، وأن السبيل الأقوم لفهم دقيق وشامل للكتاب العزيز هو الرجوع إلى آياته أولاً، قبل أي مصدر خارجي سواء أكان روايات أم أقوال المفسرين.

ويظهر من تتبع منهجه في الميزان أن هذا الأصل لم يكن مجرد شعار أو دعوى نظرية، بل كان أساساً علمياً يطبقه بدقة في استنباطاته التفسيرية، فالعلامة الطباطبائي كان يرى أن القرآن كتاب متكامل بذاته، يحتوي على بيانه وتوضيحه الداخلي، وأنه لا يفسر تفسيراً سليماً إلا بالرجوع إليه نفسه، باعتباره "نوراً وتبياناً" يهدي إلى الحقائق بنفسه، كما وصفه بذلك في مواضع عديدة.

ومن هنا سنبين أن العلامة الطباطبائي قد تبني هذا المنهج لا من باب التقليد، بل بعد نظر فلسفي عميق وإيمان راسخ بأن الوحي الإلهي يحمل في ذاته مفاتيح فهمه، وأن المنهج التجريبي أو الاعتماد المفرط على الروايات بمعزل عن النص القرآني يفقد المفسر القدرة على استجلاء الرؤية القرآنية الشاملة.

فيذكر سماحته: الحق أن الطريق إلى فهم القرآن الكريم غير مسدود، وأن البيان الإلهي والذكر الحكيم بنفسه هو الطريق الهادي إلى نفسه، أي إنه لا يحتاج في تبين مقاصده إلى طريق، فكيف يتصور أن يكون الكتاب الذي عرفه الله تعالى بأنه هدى وأنه نور وأنه تبيان لكل شيء مفتقراً إلى هادٍ غيره ومستتيراً بنور غيره ومبيناً بأمر غيره (الطباطبائي، دت، ج ٣، ص ٨٨).

إنّ هذا النص يعبر عن فحوى الرؤية المنهجية التي تبناها العلامة الطباطبائي من نظر نقاد المنهج التفسيري للعلامة في تفسيره الميزان، إذ يرى سماحته أن القرآن الكريم مكتفٍ بذاته في بيان معانيه، وأنه لا يحتاج في تبين وإيضاح مقاصده إلى مصدر خارج عنه، لأنه في ذاته – نور – و – تبيان لكل شيء – و – هدى – وهذا الموقف يمثل من الناحية النظرية إعلاناً صريحاً عن – استقلال النص القرآني كمصدر معرفي مغلق على ذاته – بحيث يكون القرآن هو المفسر الأول لنفسه، لا الرواية ولا اللغة ولا العقل.

غير أنّ هذا الطرح على الرغم ممّا فيه من عمق فكري وإعلاء لمقام النص القرآني الإلهي، يثير جملة من الإشكالات المنهجية والنقدية، فمنها القول بالاكتمال الذاتي للقرآن في فهمه قد يضعف من القيمة التفسيرية للروايات النبوية والأئمة المعصومين عليهم السلام، الذين مثلوا الامتداد البياني للخط القرآني في المدرسة الإمامية، فإطلاق هذا المبدأ دون تقييد بحدود منهجية واضحة قد يفهم على أنه استغناء عن هذا البيان الروائي.

قد مر فيما تقدّم أنّ الآيات التي تدعو الناس عامة من كافر أو مؤمن ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه إلى

تعقل القرآن وتأمله والتدبر فيه وخاصة قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء ٨٢)، تدل دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث، ويرتفع به ما يترأى من الاختلاف بين الآيات، والآية في مقام التحدي، ولا معنى لإرجاع فهم معاني الآيات – والمقام هذا المقام – إلى فهم الصحابة وتلامذتهم من التابعين حتى إلى بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الطباطبائي، دت، ج ٣، ص ٨٤).

يستند العلامة الطباطبائي في هذه الرؤية على النص القرآني الذي فيه أمر بالتدبر وهي رؤية متميزة تقوم على

الإيمان بقدرة الإنسان على فهم معارف القرآن بالتدبر المباشر، دون الحاجة إلى الاعتماد الكامل على تفسير الصحابة أو بيان النبي عليه الصلاة والسلام في كل مورد، مستنداً إلى دلالة – آيات التدبر – التي تجعل من الخطاب القرآني موجهاً إلى عموم الناس في كل العصور، غير أن هذا الموقف على ما فيه من نزعة تجديدية تعيد الاعتبار للعقل والنص القرآني في آن واحد، وتثير دوافع النقاد إلى إيجاد اشكالات معرفية ومنهجية، فمن حيث المبدأ، تبدو رؤية الطباطبائي أقرب إلى – التعصب النصي – الذي يسعى إلى بناء التفسير من داخل القرآن نفسه، وهو يسعى يعبر عن طموح علمي لإعادة مركزية النص في عملية الفهم، إلا أن هذا الطموح لا يخلو من – إطلاق منهجي – قد يفضي إلى تجاوز المرجعيات المفسرة التي تشكل في الفكر الإمامي جزءاً من البنية التكوينية للبيان الإلهي.

إنَّ السير بهذا المنهج – الاكتفاء الذاتي للقرآن في فهمه – لا يتسق تمامًا مع التطبيق العلمي في الميزان، إذ

يتضح من تتبع تفسير الطباطبائي أنه اعتمد الروايات في مواضع عديدة، خصوصاً في الآيات العقائدية والأحكام، واستفاد من اللغة والفلسفة والبعد الاجتماعي لتوضيح دلالات النص، وهو ما يكشف عن – مرونة تطبيقية – تخالف ما يُعتقد بظاهر الإطلاق النظري في عباراته.

إن موضوع تفسير القرآن بالقرآن هو من المباني المهمة في تفسير الميزان... يرى العلامة أن آيات القرآن لا

تحتاج إلى غير القرآن، إلا في آيات الأحكام وبعض آيات المعاد والقصص، حيث إنه يرى بأن القرآن مفسر لنفسه بنفسه، ومبين بذاته لآياته، وإنَّ الآيات المبهمة والمتشابهة تفسر بالآيات المحكمة والمُبيِّنة (سيدان، ١٤٣٥ هـ، صفحة ١٣).

إن ما يرد على هذه النظرية هو إطلاقها وعمومها، لا أصلها فلو قلنا بأن إحدى طرق التفسير هي أن يفسر

القرآن بنفسه، فهذا كلام صحيح لا غبار عليه، وأما إذا حصرنا التفسير بها وقلنا بأنَّ الطريق الوحيد في فهم القرآن هو طريق تفسير القرآن بالقرآن، وإنه لا يحتاج إلى بيان أحد حتى النبي وعترته عليهم السلام - في غير آيات الأحكام وبعض الآيات المرتبطة بالمعاد والقصص القرآنية - فيرد عليه بعدم التمكن من رفع الإبهام في بعض المواقع عن الآية بواسطة الآيات الأخرى، ولا يمكن رفعه إلا ببيان المعصوم وحده (سيدان، ١٤٣٥ هـ، صفحة ١٤-١٥).

السؤال الذي يطرح هنا هو: إذا كان القرآن بياناً ونوراً وهدى ومبيناً، فلماذا حار الطباطبائي نفسه ومعه

العشرات من علماء التفسير عبر التاريخ في تفسير الكثير من نصوصه؟ (حيدر حب الله، ٢٠١٧م، ج ٢ ص ٢١٦).

النظرية الثانية لصاحب تفسير الميزان وأتباعه، وهي معاكسة للأولى تماماً، ويمكن التعبير عنها بنظرية حسبنا

كتاب الله، في فهمه مألأ لا ابتداءً (سند، ٢٠١٣م، ج ٢ ص ١٩٥).

ومن ثم كان شعار حسبنا كتاب الله شعار خداع وشعار تلبيس وتدليس وتحايل، فهل ينفك الكتاب عن أهل

الكتاب المطهرين الذين يمسونه؟ وهذا هو نظير دعوى تفسير القرآن بالقرآن، فإنه كما ترى ليس إلا تفسير القرآن بجهد بشري ظني قد يخطأ وقد يصيب، استعانة بالقرآن التي يقف عليها المجتهد بحدود فهمه البشري من القرآن، لا أن القرآن الوحي ينطق ويفسر المصحف الصامت بنفسه (سند، ١٤٣٥ هـ، صفحة ٣٥-٣٦).

وفي إطار البحث والتحقيق في الآراء التفسيرية، يتوقف سماحة السيد جعفر سيدان عند جملة من آراء ومنهج

العلامة الطباطبائي، ليقدم بشأنها رؤية نقدية متأنية. فبدلاً من الاكتفاء بعرض أقوال الطباطبائي كما هي، يعتمد السيد جعفر سيدان إلى قراءتها قراءة تحليلية عميقة، مستنداً إلى منهج علمي يركز على الملاحظة الدقيقة والتمحيص العقلي، وتأتي قراءة سماحة السيد جعفر النقدية من منطلق حرصه على الوصول إلى فهم أدق وأوسع وأشمل للمسائل المطروحة، واستجلاء ما قد يعد موطن نظر أو محل تأمل في طروحات العلامة الطباطبائي، لا سيما في ما يتعلق بالرأي التفسيري والمنهج الذي سار عليه العلامة الطباطبائي التي أثارت تبايناً في آراء العلماء والباحثين.

ويتميز نقد السيد جعفر سيدان بكونه لا ينجح إلى الطعن أو تقليل من مكانة أو قيمة تفسير الميزان، بل يحافظ

على الاحترام العلمي الواجب، مبرزاً في الوقت ذاته ما يراه من إشكالات أو تفسيراً مغايراً أو موطن نقد في المنهج التفسيري للعلامة، ما يجعل هذه المداخلة النقدية إضافة مهمة في سياق الحوار العلمي البناء وتحريك الساكن بين علماء التفسير.

فيقول سماحة السيد جعفر: (إن العلامة قد ذكر أدلة ثلاث لإثبات ضرورة تفسير القرآن بالقرآن وقال في الجزء

الأول والتاسع من التفسير: إن هذه المجموعة -القرآن- لا تحتاج إلى غيرها في تبين معناها وهي التي تبين نفسها

بنفسها، إلا أن ذلك لا يتيسر إلا لمن كان دقيقاً وعالماً بالمقدمات الفنية الأدبية واللغوية القرآنية وراسخاً في علوم

القرآن. فإنه يستطيع أن يفسر القرآن بالقرآن مع التأمل والتفكير إلا في الموارد المستثناة.

إن الأدلة الثلاثة التي ذكرها فهي كما يلي: أولاً: إن القرآن عرف نفسه بأنه نور والنور لا يحتاج إلى غيره و

لا يستنير بنور آخر؛ وإلا لما سمّي نوراً وإنما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩)، لأنه نزل تبيناً ومنوراً لنفسه، ولا يحتاج إلى غيره. ثانياً إن التحدي المذكور في القرآن منوط بنورانية القرآن ووضوحه والقرآن يدعو الناس إلى تلاوته لأجل الهداية، ويدعوهم إلى الاهتمام به وإلى النظر في أن الإنسان عاجز عن الإتيان بمثل علومه ومعارفه. فالقرآن في مقام التحدي، وهذا التحدي لا يتم إلا إذا كان فهم القرآن ممكناً وميسوراً لمخاطبيه من الكفار والمشرّكين هذا أولاً؛ وثانياً: أن لا يكون فهمه متوقفاً على شيء آخر غيره حتى إلى بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والصحابة. ثالثاً ورد في أحاديث كثيرة، الأمر بالتمسك بالقرآن وعرض الروايات عليه، وهذا إنما يصح إذا كان من الممكن الاستفادة الأحاديث جميع المنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن، وحينئذ لو توقف فهم القرآن على الأحاديث لزم الدور وبعبارة أخرى: من جانب إذا كان البناء على عرض الروايات على القرآن، فإنه يلزم أن يكون القرآن مشتملاً على جميع المواضيع الروائية، ومن جانب آخر لو كان البناء على أن نفهم القرآن بالروايات، فهذا دور واضح وباطل). (سيدان، ١٤٣٥ هـ، صفحة ١٥-١٦).

من المسائل المهمة في المنهج التفسيري للعلامة الطباطبائي، موقفه من عموم وشمول دلالة قوله تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩). فعلى الرغم من أن ظاهر الآية القرآنية الكريمة يدل على عموم بيان

القرآن لجميع ما يحتاجه الإنسان في تبين كل شيء، إلا أن العلامة الطباطبائي يستثني منها بعض الموارد، معتبراً أن المقصود في الآية القرآنية الكريمة وأن -كل شيء-، ليس عموم الأشياء على نحو الإطلاق، وإنما استثنى منها بعض الموارد.

ومن هذا المنطلق، يرى العلامة الطباطبائي أن بعض الآيات لا تنتمي لهذا العموم، إنما هنالك استثناء، وهذا الاستثناء وإن كان مبنياً على تفسير خاص من قبل العلامة الطباطبائي لمعنى تنبيأ لكل شيء، إلا أنه يُعد موضع نقاش ونقد عند بعض المفسرين والباحثين، الذين يرون أن في هذا التخصيص الذي تبناه العلامة تضييقاً لدائرة البيان القرآني أو هو خلاف ما تقدم به من منهج أن القرآن يفسر بعضه بعض، قد لا ينسجم مع الإطلاق اللفظي الوارد في بداية رأي العلامة.

فيذكر سماحة العلامة الطباطبائي: (وأما آيات الأحكام، فقد اجتبتنا تفصيل البيان فيها لرجوع ذلك إلى الفقه (الطباطبائي، د.ت، ج ١، ص ١١).

إن العلامة أخرج آيات الأحكام وبعض آيات المعاد من هذا الإطار، معترفاً بأنه لا يمكن الاكتفاء بالقرآن في تفسير هذه الآيات، وإنما نحتاج إلى بيانات النبي والأئمة عليهم السلام، لفهمها وتفسيرها والسؤال الذي نطرحه: هل تستثنى بعض الآيات من قاعدة كون القرآن تنبيأ لكل شيء؟ وهل يمكن أن تكون بعض الآيات نوراً وبيناً دون البعض الآخر؟!، إنا إذا أقررنا بأن القرآن نور كله، وأن جميع آياته بيّنات، وقلنا بأن لازم ذلك عدم احتياجه إلى تفسير وتوضيح النبي وأهل بيته عليهم السلام، فإنه لا يستثنى منه حتى آيات الأحكام والمعاد (سيدان، ١٤٣٥هـ، صفحة ١٧-١٨).

وإشكالنا المتواضع على هذا المبني: أن تنبيان ونور القرآن يخضع للاستثناء في ما يخص بعض موارده؟ وهل يمكن افتراض كون بعض القرآن بيئاً ونوراً، وبعضه الآخر يفتقد إلى هذا الوصف؟ والظاهر أن العلامة نفسه لا يلتزم بهذا المحذور؛ لأن كون القرآن نوراً ومبيناً وتنبيأ لا يتنافى مع كون بعض الآيات في تفسيرها وتبيناتها تحتاج إلى السنة، وليس هناك من سبب يمنع اعتبار وحجية السنة في التفسير، وبخرجها من دائرة التفسير، ويجعل بالتالي القرآن في غنى عنها (زادة والجعفري، ٢٠١٣م، الصفحة ٣٨٤-٣٨٥).

هذه من جملة المسائل التي توقف عندها سماحة السيد جعفر سيدان وآخرين بالنقد والتحليل حول ما طرحه

العلامة الطباطبائي في تفسيره لمدى شمول وأطلاق القرآن الكريم وبيانه لمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

تَنبِيئًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل ٨٩). فيرى السيد جعفر سيدان أن العلامة الطباطبائي، على الرغم من مكانته التفسيرية والفكرية الكبيرة، قد اتخذ موقفاً فيه قدر من الحصر والتقييد، عندما أخرج بعض الآيات القرآنية وتحديداً آيات الأحكام وبعض آيات المعاد من إطار عموم التبيان – كل شيء – فيرى العلامة الطباطبائي أن هذه الآيات القرآنية لا يمكن الاكتفاء بفهمها من ظاهر النص القرآني وحده، بل تحتاج إلى تفسير النبي صل الله عليه وآله وسلم والأئمة المعصومين عليهم السلام، لفهم مضامينها وتفضيل أحكامها. ويعد هذا الإقرار والحصر والتقييد في نظر السيد جعفر سيدان موقفاً تأويلياً يحمل دلالة على عدم شمول البيان القرآني لجميع الآيات بنفس المستوى أي أن هنالك تباين في تفسير آيات قرآنية عن أخرى، وهو ما يثير إشكالاً معرفياً وتفسيرياً هاماً، يتمحور حول السؤال الذي طرحه السيد جعفر سيدان: بأن هل يعقل أن يستثنى بعض القرآن من قاعدة كونه – تنبيأ لكل شيء؟ – وهل يجوز اعتبار بعض الآيات – نوراً وبيئاً – دون سواها؟.

في ضوء هذا الإشكال يقدم السيد جعفر سيدان نقداً جوهرياً لمنهج العلامة الطباطبائي، فيما إذ إننا سلماً بأن

القرآن الكريم كله نور، وجميع آياته بيانات، فإننا لا نستطيع حينئذ أن نفصل بين آية وأخرى في درجة البيان، ولا أن نستثنى من هذا النور آيات الأحكام أو المعاد. ويشير السيد جعفر سيدان إلى أن القول بضرورة بيان النبي وأهل البيت عليهم السلام لا يعني قصوراً

في فهم القرآن، بهل هو امتداد للبيان والتفسير القرآني ذاته، لأن المعصومين لا يُبينون القرآن من خارجه وأن النبي صل الله عليه وآله وسلم – لا ينطق عن الهوى – بل يُظهرون ما حقيقة معناه برؤيا قرآنية، يدركها من كان في مقامهم.

لذا يقول سماحة السيد جعفر سيدان: (أما إذا لم يكن في المقام تنافٍ، أي بين نورانية القرآن وبين احتياج آياته

في التفسير إلى السُّنة، فحينئذ لا يوجد دليل على حذف السنة في تفسير القرآن والقول باستغنائه عنها استناداً على نورانيته، بل يصح القول بنورانية القرآن حتى في صورة احتياج فهم بعض آياته -من الأحكام والمعاد وغيرها- إلى توضيح الروايات وبيانها. والحق أن نورانية القرآن من حيث المجموع لا تتنافى مع كون بعض آياته متشابهة فحتاج في فهمها إلى الروايات وبيانات المعصومين عليهم السلام. أن المراد من نورانية القرآن وهديته هو الهداية في طريق السعادة، ولو قلنا إن القرآن (تبييناً لكل شيء) (النحل ٨٩) فهو ناظر إلى مجموع القرآن لا خصوص كل آية لوحدها. ومضافاً إلى أنه يمكن أن يكون القرآن تبياناً لكل شيء بالنسبة إلى الحجة المعصوم عليه السلام، فحسب، و في مقام الثبوت. فالقرآن يبين الحق والباطل، وأنه كتاب حق حتى في صورة لزوم إرجاع فهم بعض آياته إلى بيان الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولا يخفى أن صاحب الميزان نفسه أحياناً بعد تفسير والبعض الآيات بقوله "الله أعلم"، مما يدل على عدم اتضاح معناها) (سيدان، ١٤٣٥ هـ، صفحة ١٨).

وعليه، فإن الطرح الذي يذهب إلى حصر – التبيان – في تفسير وبيان القرآن الكريم، أو يخرج بعض الآيات

من شمول النور والبيان، هو – بنظر السيد جعفر سيدان – إشكال في فهم طبيعة القرآن ذاته، الذي يعبر عن حقيقة نورية وهداية متكاملة، لا يحتاج في ذاتها إلى تكميل، بل تحتاج إلى كشف وبيان عبر أوليائه المعصومين، الذين هم اللسان المفسر لهذا الكتاب دون أن يكونوا إضافة عليه.

إن هذا النقد يعكس رؤية فلسفية كلامية وتفسيرية عميقة لدى السيد جعفر سيدان، تقوم على التمسك بالظاهر

الشمولي للقرآن، وأساسها مبدأ الوحدة التكوينية بين القرآن الكريم والمعصومين عليهم السلام، وهو ما يجعل من المعصوم جزءاً لا يتجزأ من التبيان القرآني، لا مُفسراً مستقلاً كسائر المفسرين، بل كاشفاً عن المعنى الباطن والمراد الحقيقي للتفسير والتبيان الإلهي.

وفي السياق ذاته وفي ضوء المنهج التفسيري للعلامة الطباطبائي في تفسير الميزان يتضح أن العلامة لا يعول

على أخبار الأحاد في تفسير القرآن الكريم، إذ يرى سماحته أن الخبر الواحد لا يرتقي إلى مستوى الحجة القطعية التي يبنى عليه التفسير، حيث جعل من النص القرآني منهجاً ثابتاً في التفسير.

يذكر العلامة الطباطبائي في عد موارد حول خبر الأحاد: لا نعول على الأحاد في غير

الأحكام الفرعية على طبق الميزان العام العقلاني الذي عليه بناء الإنسان في حياته (الطباطبائي، د.ت، ج ٦ ص ٥٧).

ويرفض التعويل على الأحاد في فهم حقيقة إبليس والجن وتناسلهم، بل لا بد عنده في هذه الموضوعات من آية

محكمة أو حديث متواتر أو محفوف بالقطع (ينظر: الطباطبائي، د.ت، ج ٨ ص ٦٢-٦٦).

ومعنى كون الأحاد محفوفة بما يفيد العلم والقطع هو الوثوق التام الشخصي، سواء في أصول الدين أو التاريخ

أو الفضائل أو غيرها، إلا في الفقه، فإن الوثوق النوعي كاف (الطباطبائي، د.ت، ج ٨ ص ١٤١).

وإن روايات التفسير إذا كانت أحاداً فلا حجية لها، إلا ما وافق مضامين الآيات، والحجية محصورة في

الشرعيات، فروايات القصص والتفسير الأحادية غير حجة شرعاً، أما الحجية العقلانية فلا مسرح لها بعد توافر الدس والجعل في أخبار التفسير والقصص، إلا ما تقوم القرائن القطعية على صحة منته (الطباطبائي، د.ت، ج ٩ ص ٢١١-٢١٢).

اتضح في علم الأصول اتضاحاً يتلو البدهة أن لا معنى لحجية أخبار الأحاد في غير الأحكام كالمعارف الاعتقادية والموضوعات الخارجية (الطباطبائي، د.ت، ج ١٤ ص ١٣٣).

يبدو لنا أن العلامة محمد حسين الطباطبائي من أكثر الشخصيات المتأخرة تشدداً في أمر الأحاد والظنون في

المجال التفسيري والعقدي معاً، يرفض الطباطبائي أي شيء اسمه خبر الواحد الظني في العقائد والتفسير، وفي كل ما كان من غير الفقه وما يتصل به، سواء كان تام السند أم ضعيف، ولهذا وجدناه في تفسير الميزان يؤخر البحث الروائي عن البحث التفسيري، لا أقل من ناحية العرض والإثبات والبيان، على خلاف نسق كبير متعارف في التفسير الشيعي، وهو نسق يستحضر على الدوام النص الروائي في عملية التفسير (حيدر حب الله، ٢٠١٧م، ج ٢ ص ٢١٠).

إن هذه المباني والآراء التي تبناها العلامة الطباطبائي حيال الخبر الواحد، ولا سيما في مجال التفسير، تمثل

اتجاهاً مغايراً للموروث التفسيري والروائي التقليدي. فهو إذ لا يعول بخبر الأحاد في تفسير المعاني القرآنية ما لم يعضده دليل قطعي أو شاهد قرآني أي محفوف بقرائن، فهنا يؤسس العلامة الطباطبائي منهجاً تفسيرياً يغلب النص القرآني على غيره من المصادر النقلية.

غير أن هذا المسلك لم يكن بمنأى عن النقد، إذ رأى فيه بعض الباحثين تهميشاً لدور الرواية في فهم النص

القرآني، بل وتفرغاً للمدرسة التفسيرية الإمامية من ركنها الروائي الأساس. ومن ثم برز اتجاه ناقد يعتبر أن الاختصار على النص القرآني في ضوء المعطيات العقلية واللغوية لا يفضي إلى إضعاف الصلة بين التفسير القرآني والتراث الروائي.

المبحث الثالث: رأي العلامة الطباطبائي من المناهج التفسيرية

تعد منهجية العلامة محمد حسين الطباطبائي في تفسيره الميزان من أبرز المناهج التفسيرية المعاصرة التي

أثارت نقاشاً واسعاً بين الباحثين فقد أعلن سماحته التزامه بمنهج تفسير القرآن بالقرآن وجعله الأصل المنهي الأصيل في مشروعه التفسيري، غير أن التطبيق العلمي للتفسير كشف عن حضور مناهج أخرى – لغوية وروائية وفلسفية واجتماعية – الأمر الذي دفع بعض المفسرين والباحثين إلى التساؤل عن مدى انسجام هذا الحضور للمناهج التفسيرية من المبدأ المعلن وهو تفسير القرآن بالقرآن.

إلا أن الآراء النقدية ناشئة عن قراءة جزئية أو غير دقيقة، فإن العلامة الطباطبائي لم يتخل عن مبدئه، وإنما

وظف تلك المناهج في إطار الإعانة والتكميل لا في مقام التأسيس، ما يقتضي التمييز بين الأصل التفسيري وبين ما يعين عليه، وبذلك فإن ما عد تناقضاً بين النظرية والتطبيق لا يعدو أن يكون ناشئاً عن – إطلاق وعموم – في فهم صياغة الطباطبائي لمبدئه، في حين سيظهر ما سيتم ذكره انسجاماً منهجياً يحافظ على مركزية التفسير القرآني

الذاتي، ويجعل من الأدوات الأخرى عناصر مساندة لا تمس جوهر المنهج.

فيبين العلامة الطباطبائي ذلك: وليس هنالك مجال للظن أن هذا الموضوع (القرآن يفهمه عامة الناس) يتنافى

مع الموضوع السابق (أن النبي صل الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، هم مراجع علمية للمعارف الإسلامية، والتي هي حقيقة يدل عليها القرآن الكريم) إن بعضاً من المعارف الإسلامية، وهي الأحكام والقوانين التشريعية، فإن القرآن الكريم يشير إلى الكليات منها،

ويتوقف تفاصيلها بالرجوع إلى السنة (حديث أهل البيت) مثل أحكام الصلاة والصوم والمعاملات وسائر العبادات. والبعض الآخر كالاعتقادات والأخلاق، وإن كانت مضامينها وتفصيلها يفهمها العامة، لكن إدراك وفهم معانيها يستلزم اتخاذ نهج أهل البيت، مع الاستعانة بالآيات، فإنها تفسر بعضها بعضاً (الطباطبائي، ١٩٩٩م، صفحة ٧٠).

إنَّ نظرية العلامة الطباطبائي في تفسير النبي وأئمة أهل البيت عليهم السلام للقرآن الكريم هي لا تعني

قصور القرآن عن البيان بل قصور عقل المتعلم في نهل بيانه الكريم.

فيقول سماحته: من هنا يظهر أن شأن النبي صل الله عليه وآله في هذا المقام هو التعليم فحسب. والتعليم إنما هو

هداية المعلم الخبير ذهن المتعلم وإرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليه، لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم. فإنما التعليم تسهيل للطريق وتقريب للمقصد، لا إيجاد للطريق وخلق للمقصد، والمعلم في تعليمه إنما يروم ترتيب المطالب العلمية ونضدها على نحو يستسهل ذهن المتعلم ويأنس به، فلا يقع في جهد الترتيب وكد التنظيم فيتلف العمر وموهبة القوة أو يشرف على الغلط في المعرفة، وهذا هو الذي يدل عليه أمثال قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل ٤٤). فالنبي إنما يعلم الناس ويبين لهم ما يدل عليه القرآن بنفسه ويبينه الله سبحانه بكلامه. (الطباطبائي، دت، ج ٣ ص ٨٥)

إن حجية قول الرسول والأئمة عليهم السلام يجب أن تفهم من القرآن الكريم، فكيف يتصور توقف حجية

ظواهره على أقوالهم عليهم السلام. بل نزيد على هذا القول ونقول إن إثبات أصل النبوة يجب أن تنتسب فيه بذيل القرآن الكريم الذي هو سند النبوة كما ذكرنا سابقاً. وهذا الذي ذكرناه لا ينافي كون الرسول والأئمة عليهم السلام، عليهم بيان جزئيات القوانين وتفصيل أحكام الشرعية التي لم نجدها في ظواهر القرآن، وأن يكونوا مرشدين إلى معارف الكتاب الكريم، كما يظهر من الآيات: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل ٤٤)، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر ٧)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء ٦٤)، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة ٢). يفهم من هذه الآيات أن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي يبين جزئيات وتفصيل الشريعة، وهو المعلم الإلهي للقرآن المجيد، وحسب ما جاء في حديث الثقلين الأئمة عليهم السلام هم خلفاء الرسول في ذلك. وهذا لا ينافي أن يدرك مراد القرآن من ظواهر آياته بعض من تتلمذ على المعلمين الحقيقيين وكان له ذوق في فهمه (الطباطبائي، ١٩٧٣-١٣٩٣م، صفحة ٢٤-٢٥).

كما إن سماحته يهتم كثيراً لأسباب النزول والحوادث التي دعت على نزول الوحي عليه السلام ويفسر الآيات

حسب تاريخ أو سبب نزولها إذ يذكر العلامة: إن كثيراً من السور والآيات ترتبط بالحوادث والأحداث التي وقعت أيام الدعوة...، أو نزلت لحاجات ضرورية من الأحكام والقوانين الإسلامية...، هذه القضايا التي سببت نزول السور أو الآية هي المسماة بأسباب النزول، ومعرفتها تساعد إلى حد كبير في معرفة الآية المباركة وما فيها من المعاني والأسرار (الطباطبائي، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، صفحة ١٢٣).

(إن تفاصيل الأحكام مما لا سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أرجعها القرآن إليه)

في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر ٧) (الطباطبائي، دت، ج ٣ ص ٨٤-٨٥).

هذه من الآراء التفسيرية للعلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان التي توضح أن قاعدة تفسير القرآن بالقرآن

ليست مطلقة على جميع الآيات كما يزعم البعض، إذ استثنى الطباطبائي بعض الموارد التي لا يمكن تطبيق القاعدة

عليها بصورة مباشرة، وفي مقدمتها آيات الأحكام والقوانين والتشريعات وسائر العبادات، وهذا الاستثناء يؤكد أن مبدأ التفسير بالقرآن عنده ليس على إطلاقه وشموله التام كما رأينا في النقد الموجه لمنهجه، وإنما يجري وفق ضوابط محددة، مع بقاء الأصل القرآني الذاتي في مركز المنهج، واستعمال الأدوات المساندة حيث تقتضي الحاجة.

هو لا يغفل تفسير (الآيات بالروايات) الواردة عنهم عليهم السلام، وعن غيرهم مؤكداً على أن بعضها من باب

تبيان (المصاديق) والتأويل الذي يؤول إليه معنى الآيات؛ غير أنه يعضد منهجه تفسير (الآيات بالآيات) هذا مستنداً إلى أمثال ما ور في (نهج البلاغة) وسائر المصادر المعتبرة بقوله: (وقل علي عليه السلام: يصف القرآن على ما في النهج: ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض) (الطباطبائي، د.ت، ج ١ ص ١١). ويخلص أيضاً إلى أن تفسير (الآيات بالروايات) الماثورة عنهم عليهم السلام لا يخرج عن منهج التوحيدي الموضوعي هذا (الحسيني، ٢٠١٦، صفحة ٤٣٧).

إن الاكتفاء بظاهر اللفظ وما يحمله من دلالات بمعزل عن المقام قد لا يصل بنا على فهم النصوص القرآنية

فهما صحيحا، ومن هنا جاءت عنايته بأسباب النزول للإحاطة بما يرافق النص القرآني من ظروف وأحداث (شبر الفقيه، ٢٠٠٨م، صفحة ٢٩٦).

أما بشأن الحديث فإن استخدام العلامة للأحاديث كان بطريقة عرض الحديث على القرآن وليس العكس، ويأخذ

بالأحاديث المتواترة وقطعية الصدور فيقول: وعليه سبب النزول الواحد حول آية من الآيات لو لم يكن متواتراً أو قطعي الصدور يحب عرضه على القرآن، مما وافقه مضمونه مضمون الآية يؤخذ به ويعمل به، ومعنى هذا أن الحديث هو الذي يعرض على القرآن، لا القرآن يعرض على الحديث (الطباطبائي، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م، صفحة ١٢٦).

وهنا يتضح من خلال عرض وتحليل منهج العلامة الطباطبائي في كتاب الميزان في تفسير القرآن، أن مبدأ -

تفسير القرآن بالقرآن - مثل المحور الأساس الذي تدور حوله رؤيته التفسيرية، غير أن تطبيقاته العملية في التفسير تكشف عن وعي منهجي دقيق يجعل من مبدئه مفتوحاً على أدوات فهم أخرى دون أن يفقد مركزيته، فالعلامة الطباطبائي لم يطرح قاعدته - بإطلاقها المطلق - كما توهم بعض الباحثين والنقاد، بل تعامل معها ضمن إطار معرفي مرن يراعي طبيعة النصوص القرآنية وتنوع موضوعاتها، فاستثنى سماحتها موارد تحتاج إلى بيان تفصيلي أو تشريعي لا يستقل فيه القرآن بالبيان، ومثل هذا الاستثناء هو آيات الأحكام والعبادات وسائر التشريعات التي لا يمكن فهم تفاصيلها من ظاهر اللفظ وحده.

وقد أقر سماحتها بدور السنة النبوية وأحاديث أهل البيت عليهم السلام في تبين الجزئيات وتوضيح المفاهيم

العلمية، مع التأكيد على أن مرجعيتها نابعة من القرآن نفسه لا من مصدر مستقل عن كتاب الله عز وجل، إذ يرى أن حجية قول النبي صل الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام إنما تستمد من القرآن نفسه الذي هو أصل كل بيان.

ومن هذا المنطلق، يكون الاعتماد على الرواية - مكملاً - للمنهج القرآني لا - مناقضاً - له، وهي لا تستخدم إلا بعد عرضها على القرآن للتحقق من انسجامها مع دلالته.

وأعطى سماحتها عناية خاصة بمعرفة أسباب النزول والظروف التاريخية المصاحبة لنزول الوحي، إدراكاً

منه لأثر السياق الزمني والمكاني في كشف عن مقاصد القرآن الكريم، مع توظيفه للمنهج اللغوي والفلسفي والاجتماعي لتقريب معنى وإيضاح المفهوم في ضوء وحدة الهداية القرآنية.

ومن هنا يظهر أن منهجه لا يقوم على القطيعة مع المناهج الأخرى، بل على – التكامل بين النص والعقل والنقل والتاريخ – في ضوء مركزية القرآن نفسه.

وبذلك يمكن القول إن تفسير الميزان يمثل مشروعاً تفسيريّاً متماسكاً يقوم على الجمع بين – الأصالة القرآنية

والانفتاح المنهجي – فالقرآن الكريم عند العلامة الطباطبائي هو الأصل والمرجع الأعلى في الفهم، فيما تأتي المناهج الأخرى في مقام الإعانة والتكميل، وهذا الوعي المنهجي الدقيق هو الذي منح تفسيره طابعه العلمي والفلسفي المتفرد، وجعله من أهم التفاسير المعاصرة التي نجحت في إعادة بناء العلاقة بين القرآن والعقل والحديث، وفي تأكيد فاعلية النص القرآني في التفسير ذاته ضمن رؤية معرفية متوازنة تجمع بين الدقة العلمية والروح الإيمانية.

استنتاجات:

١. تبين من خلال الدراسة أن مبدأ تفسير القرآن بالقرآن مثل الركيزة المركزية في المشروع التفسيري للعلامة الطباطبائي في الميزان.
٢. لم يطرح الطباطبائي هذا المبدأ على إطلاقه التام، بل قيده بضوابط واستثناءات ظهرت بوضوح في مجالات آيات الأحكام والتشريعات والعبادات.
٣. استلزم تفسير تلك الموارد الاستعانة بمناهج مكملة كالسنة واللغة والفلسفة والبعد الاجتماعي، من دون أن تمثل هذه المناهج بدائل عن الأصل القرآني.
٤. الانتقادات التي وجهت إلى منهجه بدعوى وجود تناقض بين النظرية والتطبيق لا تصمد أمام التحليل المنهجي الدقيق.
٥. ظل الطباطبائي محافظاً على مركزية التفسير القرآني الذاتي، بينما جاءت المناهج الأخرى في موقع الإعانة والتكميل لا التأسيس والاستقلال.
٦. يجمع منهجه بين الأصالة القرآنية والانفتاح على المعطيات المعرفية الأخرى، وهو ما أضفى على تفسيره بعداً تراكمياً مركباً يمزج بين العمق القرآني والثراء الفكري.

المصادر:

- القرآن الكريم.
- ١. الفراهيدي، الخليل بن أحمد . (د.ت). العين (تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي). دار ومكتبة الهلال.
- ٢. ابن الجزي، محمد بن أحمد. (١٤١٦هـ). التسهيل لعلوم التنزيل (تحقيق: عبد الله الخالدي). دار الأرقم بن أبي الأرقم.
- ٣. ابن حيان. (٢٠٠٠م) البحر المحيط. مطبعة السعادة.
- ٤. ابن فارس، أحمد. (١٩٦٩-١٩٧٢م). مقاييس اللغة. (تحقيق: عبد السلام محمد هارون). الطبعة الثانية. مطبعة مصطفى البابلي الحلبي.
- ٥. ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٤١٤هـ). لسان العرب. دار صادر.
- ٦. الحسيني، محمد علي. (٢٠١٦). منهجية العلامة الطباطبائي التفسيرية وتطبيقاتها على إعجاز القرآن في ضوء علم اللغة التوحيدي. مجلة المصباح. (٢٥).

٧. السبحاني، جعفر. (١٤٣٢هـ). الطبعة ٤. المناهج التفسيرية في علوم القرآن، مؤسسة الإمام الصادق.
٨. حب الله، حيدر. (٢٠١٧). الحديث الشريف: حدود المرجعية ودوائر الاحتجاج. (الطبعة الأولى). بيروت، دار الانتشار العربي.
٩. سيدان، السيد جعفر. (١٤٣٥هـ، الطبعة ١). التحقيق في منهجية تفسير القرآن بالقرآن في تفسير الميزان (ترجمة: السيد فاضل الرضوي). دار الولاية للنشر.
١٠. الفقيه، شبر. (٢٠٠٨). الدلالات القرآنية في فكر محمد حسين الطباطبائي (الميزان أنموذجاً). دار الهادي.
١١. العك، خالد عبد الرحمن. (١٩٨٦، الطبعة ٢). أصول التفسير وقواعده. دار النفائس.
١٢. الطباطبائي، محمد حسين. (١٩٧٣). القرآن في الإسلام. (ترجمة: السيد أحمد الحسيني). الطبعة ١. دار الزهراء.
١٣. الطباطبائي، محمد حسين. (١٩٩٩، الطبعة ١). الشيعة في الإسلام. بيت الكاتب.
١٤. الطباطبائي، محمد حسين. (د.ت). الميزان في تفسير القرآن. جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.
١٥. الذهبي. محمد حسين. (د.ت). التفسير والمفسرون. مكتبة وهبة.
١٦. سند، محمد. (١٤٣٥هـ، الطبعة ١)، إسلام معية الثقلين لا إسلام المصحف منسلخاً عن الحديث. دار التفسير.
١٧. سند، محمد. (٢٠١٣م، الطبعة)، سند الأصول. مطبعة الأميرة.
١٨. قاضي زادة، كاظم، والجعفري، مريم. (د.ت). حجية الحديث في تفسير القرآن: دراسة في نظرية العلامة الطباطبائي. مجلة نصوص معاصرة، (٣٠-٣١).
١٩. معرفة، محمد هادي. (١٤٢٥هـ، الطبعة ٢). التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة.

References:

- The Holy Qur'an.
- 1. Al-Faqih, S. (2008). Qur'anic Indications in the Thought of Muhammad Husayn al-Tabataba'i: Al-Mizan as a Model. Dar Al-Hadi.
- 2. Al-Farahidi, K. ibn A. (n.d.). Al-'Ayn (M. Al-Makhzumi & I. Al-Samarra'i, Eds.). Dar wa Maktabat Al-Hilal.
- 3. Al-Husayni, M. A. (2016). The Methodology of Allama al-Tabataba'i in Qur'anic Exegesis and Its Application to Qur'anic Miraculousness in Light of the Unified Linguistic Theory. Al-Misbah Journal, (25).

4. Al-Ma‘rifah, M. H. (2004/1425 AH). *Al-Tafsir wa al-Mufasssirun fi Thawbihi al-Qashib* (2nd ed.). Astan Quds Razavi Publishing Institute.
5. Al-Sabbahani, J. (2011/1432 AH). *Al-Manahij al-Tafsīriyyah fi ‘Ulum al-Qur’an* (4th ed.). Al-Imam Al-Sadiq Foundation.
6. Al-Sanad, M. (2013). *Sanad al-Usul* (1st ed.). Al-Amira Press.
7. Al-Sanad, M. (2014/1435 AH). **Islam Ma‘iyyat al-Thaqalayn la Islam al-Mushaf Munsalikhan ‘an al-Hadith** (1st ed.). Dar Al-Tafsir.
8. Al-Saydan, J. (2014/1435 AH). *Al-Tahqiq fi Manhajiyyat Tafsir al-Qur’an bil-Qur’an fi Tafsir al-Mizan* (F. Al-Radhawi, Trans.). Dar Al-Wilayah.
9. Al-‘Uk, K. A.-R. (1986). *Usul al-Tafsir wa Qawa‘iduh* (2nd ed.). Dar Al-Nafa’is.
10. Al-Tabataba’i, M. H. (1973). *The Qur’an in Islam* (A. Al-Husayni, Trans., 1st ed.). Dar Al-Zahra.
11. Al-Tabataba’i, M. H. (1999). *Shi‘a in Islam* (1st ed.). Bayt Al-Katib.
12. Al-Tabataba’i, M. H. (n.d.). *Al-Mizan fi Tafsir al-Qur’an*. Jami‘at al-Mudarrisin fi al-Hawza al-‘Ilmiyya.
13. Al-Dhahabi, M. H. (n.d.). *Al-Tafsir wa al-Mufasssirun*. Maktabat Wahbah.
14. Hobollah, H. (2017). *Al-Hadith al-Sharif: Hudud al-Marja‘iyyah wa Dawa’ir al-Ihtijaj* (1st ed.). Beirut: Al-Intishar al-Arabi.
15. Ibn al-Jazī, M. ibn A. (1995/1416 AH). *Al-Tashil li ‘Ulum al-Tanzil* (A. Al-Khalidi, Ed.). Dar Al-Arqam ibn Abi Al-Arqam.
16. Ibn Faris, A. (1969–1972). *Maqayis al-Lughah* (A. Al-Harun, Ed., 2nd ed.). Matba‘at Mustafa Al-Babi Al-Halabi.
17. Ibn Hayyan, A. (2000). *Al-Bahr al-Muhit*. Matba‘at Al-Sa‘adah.
18. Ibn Manzur, M. ibn M. (1994/1414 AH). *Lisan al-‘Arab*. Dar Sader.
19. Qadi Zadeh, K., & Al-Ja‘fari, M. (n.d.). *The Authority of Hadith in Qur’anic Exegesis: A Study of Allama al-Tabataba’i’s Theory*. *Contemporary Texts Journal*, (30–31.)